قراءة في الخطاب التراسلي من خلال صورة المرسل الإمام "علي بن أبي طالب" في ضوء علم النص

الأستاذة: صافية دراجي

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة/ الجزائر .

يقر علم النص أنه في كل خطاب توجد ركيزتين أساسيتين أثناء ممارسة التواصل وهما المرسل والمرسل إليه باتفاق وتواطؤ بينهما من جهة، وبين أفراد المجتمع من جهة أخرى، ويجب أن تعالج الملفوظات بمعلومات مستقاة من الواقع الخارجي. على أن يُنظر إلى هذه العلامات نظرة تداولية والتي تهتم بالجانب الاستعمالي للغة في الطبقات المقامية المختلفة، فتدرس اللغة باعتبارها كلاما محددا يصدر عن متكلم، ويتوجه إلى مخاطب بلفظ محدد في مقام تواصلي لتحقيق غرض تواصلي محدد[1] .

والهدف الأساسي من استخدام اللغة كما أسلفنا هو إيصال رسالة ما إلى شخص معين أو إلى مجموعة من الأشخاص، وتقتضي هذه الإرسالية بالضرورة حضور المرسل والمرسل إليه، ولا تتحقق وظيفة اللغة الإبلاغية إلا بهما، بالإضافة إلى وجود رسالة كتحقيق واقعي، ملموس للتواصل القائم بين الطرفين. و شروط التواصل الحقيقية ينبغي أن تبنى على أساس تبادل الوظائف بين المرسل والمتلقي عبر الوضع نفسه، فيتحول المتلقي إلى مرسل، و المرسل إلى متلق خلال عملية الإرسال، علما بأن العملية الانعكاسية لا تتحقق إلا بتوفر عنصر القصد الذي يستلزم المعرفة من خلال الإحاطة بسياق المقام ولو كانت هذه المعرفة مضمرة[2]. فتمكن هذه الإحاطة من ربط مختلف الإشكاليات الواردة في الخطاب، والتي يقتضي الاستعمال اللغوي في تحليلها و فهمها وربط أجزائها المذكورة

---

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب . دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005، ص26.

[2] عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص.ص40، 41.

بصراحة في بنياتها الصغرى والكبرى والتي تختفي تحت لغة التلميح، والمعنى هو لغة و كلمات، بل ليس للمعنى وجود - كما يقول "الغدامي" - إلا من خلال الكلمات المعبرة عنه، و لو أزيحت لأصبح عدما[3]. ولا يمكن أن تتجسد العلاقات الانعكاسية في الكلام الشفهي فقط فحتى الخطابات المكتوبة يمكن أن نستقرئ منها هذا الانعكاس.

وفي محاولة لإخضاع هذه النصوص إلى تحليل البنية العميقة*، وفهم نمط التداول اللغوي من خلال مقامات الاستعمال، وشكل بناء الخطاب، وتركيب وحدات النص اكتشفنا وجود علاقتين خلال عملية الإرسال والتلقي، وهما علاقة الإيجاب والسلب، تمثلت الإيجابية في أمل وعمل المرسل على تطهير الواقع بكل ما أوتي من أدوات خطابية لتحقيق الإنجاز باستمالة المخاطب والتأثير فيه معتقدا بيقين بأنه سوف ينجح.

والإمام "علي بن أبي طالب" كمرسل واقعي يحاول إخضاع الواقع إلى سلطته بمن فيهم المخاطبون ذوي السلطة العدائية في هذا المقام، ولكن يتلولب الوضع حول محور السلبية وذلك بعدم القدرة على الإصلاح. أي بالرفض من قبل المتلقي، وتجسّد هذا الرفض من خلال إرسال المخاطب لرسائل عدة تدور حول المحور ذاته، قد تكون مطالب أو أوامر، أو إجابات معارضة ومعادية لسلطة الخلافة، وقد تكون إظهارا لردود أفعال المخاطبين.

---

[3] عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير . من البنيوية إلى التشريحية، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1985، ص70.

* ونقصد بها المعنى المقصود من الخطاب الذي نستقرئه من خلال الدلالات الإيحائية والمعاني التلميحية .

وندرك مسار هذا الخطاب من خلال استيعاب علاقة قطبي الاتصال بالرسالة من خلال دراسة تحليلية لكل الوحدات النصية المشكلة للخطاب، لمعرفة وفهم المساهمين في الخطاب في علاقته بالسياق.

إن الإمام علي في هذا المقام هو مبدع الرسالة ومالكها والقائم ببثها، إنه المالك لزمامها، المتحكم لتقنياتها، يعتمد مهارات تؤهله لإنجاح فعله، بتحفيز المستقبل على التفاعل مع الرسالة[4] ، هو الخليفة الرابع للدولة الإسلامية، و آخر من قامت إمارته على مبدأ الشورى، تتمظهر رسائله ووصاياه على شاكلة الإرسال الذي يفيد التعبير كوظيفة لغوية مهيمنة اعتمد عليها أساسا.

يتحدد المرسل الواقعي إذن كآمر صاحب سلطة و كلمة باعتباره الخليفة الراشد الذي تولى إمارة دولة الإسلام بعد مقتل "عثمان بن عفان"، وإذا كانت أغلب الرسائل موجهة إلى "معاوية بن أبي سفيان " كغريم أساسي في هذا المقام الذي سيطرت عليه تفاعلات الواقع المضطرب ـ فإن دور المرسل لا يتوقف مع "معاوية" كمتلق للخطاب، إنما كانت سلطته كحاكم دولة من أكبر الدول آنذاك تضطره إلى التعامل مع كل الولاة و القضاة والجنود ورؤساء الجنود، وكانت الرسالة هي الوسيلة المثلى والطريقة الوحيدة آنذاك التي يتواصل بها الأمير مع أمرائه وولاته، إذ لا يمكنه التنقل في الأمصار بين كل فينة وأخرى خاصة وأن الدولة الإسلامية بلغت أوج توسعها.

---

[4] محمد جهاد جميل، سمير روحي الفيصل، مهارات الاتصال في اللغة العربية، دط، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2004 ، ص15.

كان لأساطين الفصاحة و البلاغة منذ القدم وعي في التعامل مع المتلقي فيما ينتج من خطابات أدبية، و دينية، وسياسية، تهدف في أساسها إلى إقناع المتلقي واستمالته والتأثير فيه بمهارات يدركونها بتخطيط ذهني، ودافع مقصدي، يعتمدون عليها من خلال خبراتهم بواقع التعامل اللغوي مع مراعاة مقتضى الحال كخصيصة أساسية لمفاهيم علم النص.

ومن منطلق مراعاة مقتضى الحال الذي يثبت مقولة أنه لكل مقام مقال، ولكل حادث حديث وأن الكلام خبر واستخبار نجد في كل خطاب مجموعة من الأشخاص وضمنهم توجد فئة المشاركين الحقيقيين الذين يفعّلون الخطاب، ويبثّون فيه السيرورة والاستمرار والتفاعل، يُختار هؤلاء المشاركون بسبب خصائصهم المميزة، أي كيفية إنجاز أفعالهم في السياق الواقعي الذي يتحدد بفترة من الزمان والمكان، يُختارون بسبب حضورهم داخل الخطاب بحيث تتحقق النشاطات المشتركة لكل من المتكلم والمخاطب، وبهذا الاعتبار توجد وظيفتان للقطبين في خضم إسهامهما في مردودية إنتاج الخطاب: وظيفة حال المتكلم، ووظيفة حال المخاطب، بحيث نتعرف كل حال في السياق مما يكون فيها الشخص المشارك متكلما والآخر مستمعا، فالمشارك المسنوفي وظيفة حال التكلم يسمى المتكلم، والمشارك المستوفي وظيفة حال التخاطب يسمى المخاطب[5] .

ولا يقصد باستيفاء وظيفة التكلم التواصل الشفوي حتما ولكن ينظم إلى هذا السلك كل أشكال التخاطب التي تقر بأن الوجود عبارة عن علامة،

---

[5] فان دايك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء . بيروت، 2000، ص260.

اعتمادا أساسا على اللغة باعتبارها النموذج الأمثل والأعقد في التواصل الإنساني، والتي يحتاج فك شفرتها إلى مؤهلات وقدرات.

يعتبر فن الترسل من الفنون الواضحة البنية والتي يسهل فيها اكتشاف المساهمين في بناء الأحداث وفي تدرجها القيمي والحواري، كما يسهل استنباط العقد المؤطرة، والبؤر المحورية التي تتحكم في سير الأحداث وفي دورانها، التي يعمد المرسل إلى بثها والاعتناء بها، والتي تجسدها الممارسة اللغوية، كما يسهل التحكم في الإطار الزماني والمكاني الذي تقال فيه، ومن ثم فإن المرسل "علي بن أبي طالب" هو الإطار الذي ننطلق منه لفهم محور الحديث والكتابة بصفة عامة، خاصة حين يتعلق الأمر بوضع خاص، وبظروف خاصة تساهم في إنتاجية هذا الخطاب.

وفي كل بحث تداولي القصد من دراسة استعمال اللغة بالأساس هو فهم هذه المقاصد، وما يتدثر تحتها من معان تلميحية ولذلك «أصبحت الذات المتكلمة تحظى بمنزلة مميزة داخل اللسانيات التداولية»[6]. وإن كنا لا نعرف كيف يحيا المؤلف خارج حدود هذا التعبير فلا يمكن استشفاف مقاصد المرسل، ولا اكتشاف المعاني التلميحية المبطنة التي تكون هي أساس الإرسال في أصله. والدراسات البنيوية المنغلقة على ذاتها والرافضة لقراءة خطاب شامل وتام تمارس عليه فعاليات وتأثيرات المحيط عامة أثبتت محدوديتها، تأكد من خلال ركون أغلب الدراسات إلى أنماط التأويلات المختلفة من خلال ما يسمى بنظرية التلقي خاصة، وهو الفشل الذريع والهزيمة التي لحقت بمثل

---

[6] أحمد يوسف، القراءة النسقية . سلطة البنية ووهم المحايثة، ج1، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2003 ، ص175

هذه النظريات البنوية حتى غدت تبحث لها عن خلاص في ضوء النظرة السياقية والمقصدية.

المرسل لهذه الخطابات الموجودة بين أيدينا من خلال كتاب " نهج البلاغة" هو شخصية واحدة معروفة في تاريخ الأدب العربي والإسلامي، وهو "علي بن أبي طالب"، الذي تربى في بيت النبوة وعاشر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء وكبار الصحابة. تُظهر الرسائل انتماءه المشرف، ومكانته بين أترابه، وقيمته الدينية والخلقية فقد « خصه الله تعالى بأشرف الكمالات الإنسانية، وملكه ملكات الفضائل النفسانية، فهو امرؤ مثلت طبيعته من طينة الفضل حين ينتسب، فالعلم والجود، والشجاعة، والعفة، والعدل، منه يكتسب. هو من رشحه الله لاستكفاء أمور بلاده وعباده، وجعلها مطاوعة لأزمة قياده، فأوامره العالية تسري فيها مسرى الأرواح في الأجسام وآراؤه الصائبة تجري فيها مجرى الصحة بعد السقام»[7].

وسنوضح هذه الفضائل الإنسانية والكمالات الأخلاقية والمكانة السامية التي يحظى بها من خلال تحليل البنيات التركيبية لبعض المقاطع من الرسائل، ودراستها من خلال الروابط المنطقية*، والإحالات النصية والمقامية.

---

[7] كمال الدين ميثم البحراني، مقدمة شرح نهج البلاغة، نقد: عبد القادر حسين، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1987، ص.ص7، 8.

يقول في مقطع من الرسالة السابعة: «فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا»[8].

يركن المرسل "علي بن أبي طالب" إلى قانون الخلق والاختيار في بث الرسالة، خصوصا أن الأمر يتعلق بعمل فني يمتلك إضافة إلى وظيفته كعلامة مستقلة وظيفة أخرى هي الوظيفة الشعرية الجمالية التي تركن إلى أشكال الخلق الجمالي التأثيري بلغة أدبية، فوقية ومتسامية، فضلا عن ظهور وظائف أخرى في خطابات الترسل لـ" علي بن أبي طالب"، تظهر بشكل متفاوت قوة وضعفا، ولكنها تمتلك وظيفة أخرى ذات قيمة سامية هي وظيفة العلامة التوصيلية، فالعمل الأدبي يجمع بين كونه عملا فنيا من جانب وبين كونه في الوقت نفسه كلاما يعبر عن موقف عقلي أو فكرة أو شعور كما يعبر عن انتماء بأي شكل من الأشكال.

---

* الروابط المطقية تنظم التعبير وتجمع شحمته وترتبه. وقد أفاض "**فان دايك**" **Van Dijk** في تبيان قيمتها الدلالية والتداولية في كتابه النص والسياق **Text and Context**. ويرى بأنه في دراسة النحو و الخطاب معا لم تكد الروابط تحظى بحقها من الدراسة على وجه سيمانطيقي دلالي، رغم أن "**الجرجاني**" كان قد تنبه إلى هذه الظاهرة قديما و جعل مدار القول البليغ ينصب على مباحث نحوية . بلاغية . تهتم أولا بالمعنى، فخصص لها فصولا هامة في كتابه "**دلائل الإعجاز**" ظهر خاصة مع"**الفصل و الوصل**" و بلغة" **فان دايك**" الربط والترابط. ويجعل الدكتور "**فضل حسن عباس**" "**الفصل والوصل**" عصب البلاغة . أنظر: فان دايك، النص والسياق، ص28. وانظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقد علي أبوزقية، دط، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص 215. وانظر: فضل حسن عباس، البلاغة العربية . فنونها وأفنانها، ط9، دار الفرقان، عمان، 2004، ص94.

[8] نهج البلاغة . خطب ورسائل وحكم علي بن أبي طالب، تحق وتثب صبري إبراهيم السيد، تقد عبد السلام محمد هارون، دط، مكتبة رحاب، الجزائر، ص204.

تصب أغلب رسائل "علي بن أبي طاب" في الطابع السياسي بسبب الواقع الذي فرض سطوته على الخطاب ثم باعتباره أميرا للمؤمنين وحاكما لدولة من أكبر دول العالم أنذاك.

إن القوم الذين قصدهم المرسل هم كفار قريش الذين عرفوا بمعاداتهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولكن ما يهم في هذا المقام هو إظهار قيمة المرسل "علي بن أبي طالب" من خلال المقطع السابق.

يتكون المقطع من جملتين مرتبطتين فيما بينهما بواسطة حرف العطف (الواو) الحيادي*، الذي يتجلى دوره هنا - إضافة إلى وظيفة الربط - في الطاقة الاختزالية للغة إذ يقلص من حجم الجملة، كما يربط الحديث التالي بالأول ويجعله تابعا له، و(قتل نبينا) بنون الانتماء إلى ضمير (نحن)، إحالة على المتكلم وأهله وصحابة النبي .. عليه الصلاة والسلام - والضمير(نحن) في هذا المقام يقتضي وجود (الأنا) باعتبارها ضمير المتكلم، فيجعل المرسل الواقعي(علي) النبي - عليه الصلاة والسلام - جزءا منهم من خلال الضمير الملكي الجمعي كإحالة مقامية.

وتواصل الجملة الفرعية الثانية، سير الأحداث و تقتضي بأن الكفار بعد تخطيطهم لقتل النبي يعملون على اجتياح الأصل (أصلنا) واقتلاعه من جذوره، ودائما باستخدام خطاب النفس من خلال ضمير (نحن)، إقرار بأن المرسل (علي) أحدهم، وأنه من أهل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو الغرض الضمني الذي يحاول أن يثبته ويبعث به إلى المتلقي المقصود

---

* حرف الوصل "الواو"، ويطلق عليها أداة الربط الملغاة أو الحيادية لأنها لا تكاد تدل على أن الأحداث مترابطة، بينما سائر أدوات الربط الأخرى تدل على نوع من الربط. أنظر: فان دايك، النص والسياق. ص104.

والضمني، والمتلقي الجمهور الكوني**. فهو من قريش، نسبه من نسب النبي عليه الصلاة والسلام، وأصله من أصله، وهي مفخرة وشرف كبير، وحضوة لا ينالها إلا من يختارهم الله من عباده.

تتمظهر قيمة المرسل وقربه من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله في مقاطع أخرى من الرسالة الثانية والعشرين: « إنّك لذهّاب في التّيه، روّاغ عن القصد، ألا ترى غير مخبر لك، ولكن بنعمة الله أحدّث، أن قوما استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين والأنصار، ولكل فضل، حتى إذا استشهد شهيدنا قيل : سيّد الشّهداء، وخصّه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه، أولا ترى أن قوما قطّعت أيديهم في سبيل الله ولكل فضل ـ حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم، قيل : الطيّار في الجنّة وذو الجناحين ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه، لذكر ذاكر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجّها آذان السامعين» [9].

يحاول المرسل في هذا الخطاب التعبيري الإبلاغي القائم على الإقناع التأكيد على قيمتهم، ومكانتهم، وفضلهم، وريادتهم، كدحض لمزاعم أعداء يتمسكون بالباطل فيناصرونه، ويدينون بالشر فيساندونه، ويسارعون إلى المنكر متحامين عليه، مدافعين عنه.

والمقطع عبارة عن خطاب موجه للأنت وهو هنا "معاوية"، ودائما اعتمادا على الإحالة المقامية، التي تربط اللغة بسياق المقام وتساهم في خلق

** الجمهور الكوني: مجموع المتلقين الضمنيين، يستخدم هذا المصطلح خاصة في مباحث الحجاج.

[9] نهج البلاغة، ص.ص 216، 217

النص[10]. ويعتمد المرسل شكل الإحالات المقامية بكثافة بغية ربط النص بالسياق ولما لها من دور في خلق التناسق النصي، وتضمنت الإحالة هنا التأكيد من خلال الأداة المقترنة بضمير المخاطب الفردي (إنك)، فلم يوجه خطابا عاديا لما يحمله من الألم والضجر، مؤكدا ذلك بواسطة الأداة (إن) المتبوعة مباشرة بصيغتي المبالغة «ذهّاب في التيه، روّاغ عن القصد» والصيغة على وزن "فعّال" تؤكد مدى فظاعة ما أرسل به المرسل الخارج النصي من شين فظيع يحاول به مس المرسل الواقعي الإمام "علي".

ولأن المرسل على دراية بالموضوع الذي يتحدث عنه محيطا به إحاطة تامة ـ كشرط أساسي من شروط إنجاح عملية التواصل ـ فقد تمكن من استخدام لغة خاصة دقيقة ومكثفة تؤدي الغرض وتوحي بما يود المرسل فعلا الإقرار به.

يتواصل الخطاب في جملة استدراكية تهدف إلى التفسير بالتعارض*، لإظهار شخص المرسل، وللحديث عن قيم دينية سامية في قوله: « ألا ترى غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أحدث». والجملة عبارة عن استفهام

---

[10] محمد خطابي، لسانيات النص . مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت . الدار البيضاء، 1991، ص17.

* التفسير بالتعارض ويعني استثناء بعض الأحداث من المجرى العادي، إذ أنه هناك حالات استثنائية غير متوقعة من جهة المبدأ إذا حصل أن قوبلت وعورضت خواص الأحداث وجرياتها مع ما يتوقع عادة أن يكون حاصلا في العوالم المتعارفة وهذه العلاقات غير المتوقعة أو الاستدراكية مما يطرأ على الأحداث إنما يعبر عنها بأدوات من الربط من نحو : لكن، مع أن، وبالرغم من أن، حتى ومع ذلك، وفضلا عن ذلك، وبينما، وإن كان على حال، وعلى أي حال. وهي أدوات تنتمي إلى مقولة أو باب الوصل . العطف المنسوق وباب الظروف وحرف الجر. أنظر : فان دايك: النص والسياق، ص122.

تنجز مقولة الاستنكار في أن يكون المخاطب الفعلي هو "معاوية"، أو أن يتعلق به الخبر بحال من الأحوال مجسدة من خلال حرف الاستدراك في جملة اعتراضية. والجملة الاستفهامية الأولى تعبر عن شرط كاف لسلب القضية المصرح بها في التالي، فيكون المقصود هو الحديث بنعمة الله، و«"علي" من الذين يؤمنون بأن سر السعادة في الوجود الاعتراف بفضل الخالق المدبر، وبمنطق العقل والقلب يأمر بأن يكون عطفك على من أنطقك وأحسن إليك أكثر وأوسع وفي ذلك يقول: لا تجعلن درب لسانك على من أنطقك وبلاغة قولك على من سدّدك»[11]. فهذا هو منطق التعامل مع الخالق سبحانه وتعالى حسب فلسفة الأخلاق عند الإمام "علي" ومنطق التعامل مع الأفراد كذلك، فلقد تربى رضوان الله عليه في مدرسة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان صورة عن أخلاقه الكريمة، وصفاته الفضيلة، وكان يحيا بوازع ديني يسير خطاه.

كما جسد الاستدراك هنا مقولة الوصل أي العطف المنسوق كما أسماه "فان دايك"*، وحسب رؤيته دائما فإن (لكن) كأداة للربط المنطقي علامة عامة جدا تدل على تغير الموضوع وانحرافه نحو وجهة قد تكون غير منتظرة، ولا متوقعة في غالب الأحوال، فيرتبط الحديث كما أشرنا بقرابة المرسل الواقعي من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومكانته في بيت النبوة، وذلك في الاستدراك المستأنف بواسطة الأداة (حتى) المتبوعة بـ (إذا) ما يؤكد

---

[11] روائع نهج البلاغة . الإمام علي، تحق جورج جرداق، دار الشروق، بيروت . القاهرة، 1975 ، ص63.

* العطف المنسوق: أي أن وصل التشريك ينبغي أن يصدق بالنسبة للجملة في كليتها أو بالنسبة لمجموعها مع شرط أن التالي قد يكذب في معظم الأحوال. أنظر، فان دايك، النص والسياق، ص122.

التشارط المتعاند المتحقق**، وفي القواعد العربية هو ما نسميه بالشرط وتحقق الشرط أو جواب الشرط التي تنحصر بين جملة الشرط وجملة جواب الشرط بوجود أداة الشرط (إذا حصلت على معدل جيد آخذك في نزهة) ويتعلق التحقق بتحقيق النتيجة التي جاءت بعد (إذا)، و خاصة مع اقتران هذا التشارط بالإحالة المقامية ما يعبر عن الملكية المعنوية للمتكلم الخاضعة لسياق القول: «حتى إذا استشهد شهيدنا قيل: سيد الشهداء، وخصه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه...». وتحقق هذا الشرط المتعاند بواسطة جواب الشرط المتحقق بواسطة جملة مقول القول وتقدير الربط «حتى إذا استشهد شهيدنا إذا به سيد الشهداء».

وللحذف هنا دوره في بناء خطاب متناسق مع وجود قرائن تحيل على المحذوف. والحذف كمساحة عدمية، ليس فراغا معنويا بقدر ما هو تغييب لبعض العناصر، ولهذا التغييب وقعه الجمالي وأثره الدلالي والعرب تقول: "البلاغة الإيجاز"، ويرى فيه عميد البلاغة العربية ورائد النهضة الفكرية حتى في عصر الحداثة وما بعد الحداثة "عبد القاهر الجرجاني" أنه: "باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر

** التشارط المتعاند المتحقق: أن نثبت صيغا تشارطية قد تصدق على الخيار الدلي في عالم ما، ولا تصدق في عالم متحقق مجهول. والخواص المتعارفة للتشارط قد تنطوي إما على إمكان الشرط واحتماله، وإما على إمكان نتيجة أو احتمالها. يجب أن نلفت الانتباه إلى أن مفهوم التشارط في كتاب **"النص والسياق"** هو المفهوم ذاته للشرط في النحو العربي. علما بأن **"طه عبد الرحمان"** يستخدم التشارط بمعنى الشرط وعكسه .أنظر: فان دايك، النص والسياق، ص.ص 119، 120. وانظر: طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . بيروت،2000، ص40.

أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[12].

لم يكن هناك من داع لأن يذكر قول بعد قوله " «حتى إذا استشهد شهيدنا إذا به سيد الشهداء»، والمحذوف تقديره "ولم يكن لغيرنا مثل ما لنا"، والكلام المحذوف يستشف من خلال سياق القول، ثم إن الحذف في هذا المقام قوّى شحنة الخطاب وأضفى عليه بعبارة "الجرجاني" شيئا أشبه بالسحر.

ويتواصل المعنى باستمرار تحقيق الشرط المتعاند: «وخصه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم - بسبعين تكبيرة». بمعنى «وإذا الرسول يخصه بسبعين تكبيرة». ما يثبت قيمة الشهيد حين يكون مهاجرا أو أنصاريا، ولا يحظى غيره بهذه الحظوة.

والحديث عن قيمة الشهيد المهاجري والأنصاري حديث عن قيمة المهاجرين والأنصار عامة، وما يحضون به من محبة الله، فما بالك حين يكون هذا الفرد من المهاجرين ومن قرابة الرسول الكريم، ومن آل بيته الذين كان يحبهم ويقربهم، و"علي" على الخصوص كان بمنزلة "هارون" من "موسى" عليهما السلام في علاقته بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، كما أقر له بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام.

تردف البنية التركيبة المركبة من وحدات بسيطة وأخرى مركبة، مع شرط متعاقد آخر، إثباتا آخر لصلة الرحم بين النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعائلة "علي"، بأسلوب قوي متين، ولغة سلسة بليغة، ولا غرابة في هذا فقد جبل "علي" على قوة الكلمة والشكيمة إذ «تهيأ له ـ كرم الله وجهه ـ ما لم يتهيأ لأحد من الناس، فقد نشأ في ربوع البلاغة في المحيط الذي تسمو فيه الملكات، وتنمو على الفطرة القويمة. وقد تربى في حجر رسول الله

[12] الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 149

الذي دانت له أساليب البيان، وتلقى عنه رسالته بكل ما فيها من إيمان وصدق وحرارة. بالإضافة إلى الاستعداد الهائل والموهبة الفذة التي حباه الله بها»[13].

لقد حاول المرسل أن يبسط علاقته وأهله بالرسول - صلى الله عليه وسلم - دون غرور وتعال بقوله في جملة اعتراضيه، استدراكية سابقة تجمع المركبات البسيطة وتعمل على خلق التناسق: «ولكن بنعمة الله أحدث». وهذا المرّكب فرعي يتواصل به سير الحدث على شاكلة الوصف، تحمل المقاطع في طياتها نغمة الرفض والأسى التي شحن بها الخطاب .

بأسلوب أكثر إقناعا مبني على استراتيجية الانفعال، ومفعّل بشواهد من التراث البياني والبلاغي المحفوظ في ذخائر العرب، يدفع الخطاب إلى إثبات موقع المرسل في السلّم الديني والأخلاقي كإظهار لموقف وموقع يؤمن به كموقع خاص به دون سواه .

يستمر الإمام في الرد على مزاعم المخاطب، مظهرا قيمته كإنسان قبل أن يكون أميرا، بخطاب منسجم ومتسق، له من الدقة ما يعطي لكل كلمة دورها وقيمتها ووجودها داخل الخطاب ويجعل الألفاظ والكلمات تتلاحم وأجزاء التعبير تتماسك ليتميز النص عن اللانص و«الاتساق يعتبر شرطا ضروريا وكافيا للتعرف على ما هو نص وعلى ما ليس بنص»[14].

وفي مدونة "نهج البلاغة" مقاطع كثيرة تظهر الانتماء المشرف لشخص المرسل الواقعي وميزاته وأفضاله داخل بيت النبوة، تظهر أخلاقه الدينية المتسامية، وغزارة علمه، وقوة حكمته، وسداد رأيه، فيقر "علي"

---

[13] البحراني، مقدمة شرح نهج البلاغة، ص7.

[14] محمد خطابي، لسانيات النص، ص12.

اقرارا غير مباشر بفخره واعتزازه في أن يكون والد "الحسن" و"الحسين" حبيبا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وسيدا شباب أهل الجنة كما وعدهما بذلك جدهما عليه الصلاة والسلام . فخور لكونه زوج أمهما "فاطمة الزهراء" ابنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخير نساء العالمين. وقبل هذا وذاك فخور لأنه تشرف بقرابة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كونه ابن عمه، وتربى في حجره، وأخذ الوحي عنه مباشرة. تتأكد هذه النظرة من خلال رسالة تركها كوصية لولديه "الحسن" و"الحسين" يقول فيها: «وإن لابني فاطمة من صدقة علي مثل الذي لبني "علي"، وإني إنما جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله، وقربة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتكريما لحرمته وتشريفا لوصلته»[15].

وبحمولة الطاقة الدينية والأخلاقية يقر المرسل بأنه إنما جعل الوصاية لولديه من "فاطمة" أي "الحسن" و"الحسين"، دون أبنائه الآخرين، وما ذلك إلا إكراما لأمهما "فاطمة الزهراء"، وقربة من الله والرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم، وإكراما لبيت النبوة. وانبنى هذا التعبير من خلال أداة التأكيد (إن) المقرونة بحرف العطف (الواو)، رغم إمكانية التخلي عنه في هذا المحل، فدوره حيادي هنا. أما (إن) فهي للإقرار والتأكيد بأن أبناءه كلهم لهم النصيب نفسه من الحقوق المادية وأنه لم يميز "الحسن" و"الحسين" من منطلق التمييز العاطفي والميل النفسي، إذ هم كلهم أبناؤه، وعدالة "علي" من عدالة الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ، ويتجسد هذا الاستدراك الذي ينفي مزاعم قد تراود ضعاف النفوس بواسطة الأداة (إنما) التي تعني (لكن) مسبوقة بالتأكيد للمرة الثانية في المركب الثاني التابع يقول: لا يقعن في أذهانكم مقاصد سوء بأن وكلت ابني "فاطمة" فما ذاك إلا لقربهما من الله والرسول ـ صلى

[15] نهج البلاغة، ص213.

الله عليه وسلم - ونلاحظ بأن هذا المعنى قد تكوثر بواسطة أداة الاستدراك (إنما)، فهي عبارة عن ربط للمتوالية التركيبية المكونة من القضية الأولى التي تسبق (إنما)، والقضية الثانية التي تتبعها، وفي الآن نفسه فاصلة للمعنيين بأن جعل التالي يفسر الأول بالمعارضة*.

وفي كل مرة يكرر "علي" إصراره بأنهم أفضل انتماء وانتسابا، ويؤكد هذا الانتماء لولديه "الحسن" و"الحسين"، عساهما يحافظان عليه، ويعملان كما كان يعمل والدهما للحفاظ على اسم آل البيت المشرف، وعلى قيمتهم ومكانتهم، والانتماء الصالح الذي ينتمون إليه. يقول في مقطع من إحدى وصاياه: «واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به اليَ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك»[16].

كانت غاية الإمام "علي" الارتقاء بمعاني الخير والفضيلة والسّمو الديني والأخلاقي ما يوحد بين الأفراد والجماعات، ويجعلهم يهتمون فحسب بما يرفع شأنهم ويقوي عزيمتهم، ويصلح أمرهم، ويثبت عقيدتهم، فاتضحت لديه هذه الرؤية، واتضح الهدف، لكنه لم يستطع أن يختصر الطريق لما كابده من أزمات، وتعرض له من صدمات، وتطهير العالم من الفتن التدني الأخلاقي ليس بالأمر الهين.

لقد حاولنا معرفة هذا المرسل وشخصيته الواقعية من خلال مفاهيم التّرابط والإحالة والاتساق التي أعانتنا على تحليل شبكة من المدلولات، ولكن

---

* التفسير بالمعارضة: أي تفسير القضايا اعتمادا على الاستدراك فحرف الاستدراك "لكن" مثلا يقوم بدور سيمانطيقي لبيان تغير الخواص أو الأحداث وتعارضها، مع مراعاة جريان الحوادث المعتادة. أنظر: فان دايك، النص والسياق، ص.ص123، 124.

[16] نهج البلاغة، ص223.

وكما أشار إلى ذلك "فان دايك" «إن بحثا من هذا القبيل لا يمكن أن يتم إلا باللّجوء إلى نظرية تداولية سليمة البناء، لأن وصف الخطاب باعتباره متوالية الجمل يتطلب في الوقت ذاته تفسيرا لشروط متوالية أفعال الكلام»[17].

كما أننا بحثنا في مدار الترسل ومحاوره الاتصالية ـ في هذا المبحث ـ عن المرسل الواقعي، آخذين بعين الاعتبار أنه مع علم النص ـ بما يحويه من آليات لسانية وتداولية وبلاغية ـ يهمنا الخطاب وفاعله، وهذا الفاعل حاولنا أن نعرفه فحسب «من خلال خطابه، أي بالكيفية التي يقدم بها نفسه»[18]. وسجلنا على لسان "براون ويول" «أن النص هو التسجيل الكلامي لحدث تواصلي»[19]. والمتكلم يتموضع في مركز عملية التواصل، فهو المثير الأول الذي يدفع إلى ممارسة الاتصال. إذ به يوجه الفعل، ويفرض التّلقي مهما كانت صفته إيجابا كان أم سلبا، وإن كان هدفه الأساسي تحقيق الفعل بالتأثير على المتلقي، وإعلامه بالأخبار، أو إقناعه بالأفكار وغيرها من مقاصد الإرسال في حالة ما إذا كان التواصل خارجيا كما هو الشأن مع رسائل "علي بن أبي طالب". ويختلف الأمر حين يكون التواصل داخليا، ففي هذه الحالة لا يحتاج المرسل إلى إبداء مهاراته وبناء استراتيجية تعينه على إنجاح فعل التواصل.

إن فن الترسل عند الإمام "علي" يفعّله مرسل واحد تحكمت فيه دوافع وظروف مختلفة دينية وسياسية وأخلاقية، ولقد تمكن من تفعيل السيرورة

---

[17] فان دايك، النص والسياق ، ص14.

[18] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص125.

[19] ج.ب. براون، ج. يول، تحليل الخطاب، تر محمد لطفي الزليطني، منير التريكي، دط، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، ص 227.

التواصلية وآليات الخطاب، وأدى وظيفته كمرسل واقعي، وفن الترسل خاصة كغرض من الأغراض النثرية يظهر فيها المرسل الواقعي واضحا دون تمويه أو تعمية، فهو في هذا المقام بالذات لا يحوي على تلاعبات كالتي نستقرئها من الخطاب السردي في تنويعه للشخصيات المساهمة في السرد الداخل حكائي والخارج حكائي.

لم يحتج "علي بن أبي طالب" إلى اعتماد هذا النمط من الإرسال باعتبار سلطته كإمام وخليفة، فتوصياته مباشرة، وترسيمة التواصل واضحة، رغم أنه ورد في بعض الطفرات من نصوصه خاصة اعتماد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمرسل داخلي، يستخدمه كحجة يثبت بها رأه ووجهات نظره.

ويظل "علي بن أبي طالب" مركز عملية الإرسال بوصفه منتج الخطب، وباعثه، ووحده من استطاع أن يحدد الدلالات والمقاصد التي يريد بثها من خلال خطاب تهديدي ونصحي وإصلاحي.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - نهج البلاغة - خطب ورسائل وحكم الإمام علي بن أبي طالب، تحق: صبري إبراهيم السيد، تقد: عبد السلام محمد هارون، دط، مكتبة رحاب، الجزائر.

2 - البحراني (كمال الدين ميثم): مقدمة شرح نهج البلاغة، تقد وتحق: عبد القادر حسين، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1987.

3 - براون (ج.ب)و يول (ح): تحليل الخطاب، ترج وتعلق: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، دط، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود.

4 - بلخير (عمر): تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003 .

5 - جهاد جميل (محمد)و روحي (الفيصل): مهارات الاتصال في اللغة العربية، دط، دار الكتاب الجامعي، الأمارات العربية، 2004.

6 - حسن عباس (فضل): البلاغة فنونها وأفنانها، ط9، دار الفرقان، عمان، 2004.

7 - خطابي (محمد): لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991 .

8 - ديك (فان): النص والسياق - استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترج: عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، المغرب - لبنان، 2000.

9 - الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، تقد: علي أبو زقية، دط، مؤسسة موفم للنشر، الجزائر، 1991 .

10 ـ صحراوي (مسعود): التداولية عند علماء العرب ـ دراسة تداولية لظاهرة أفعال الكلام في التراث اللساني العربي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005.

11 ـ عبد الرحمان (طه) ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت،2000، ص40.

12 ـ الغدامي (عبد الله): الخطيئة والتكفير ـ من البنوية إلى التشريحية، ط1، النادي الثقافي الأدبي، المملكة العربية السعودية، 1985 .

13ـ فضل (صلاح): بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجان، 1996 .

14 ـ يوسف (أحمد): القراءة النسقية ـ سلطة البنية ووهم المحايثة، ج1، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003 .